ثقافة الفيوم

أحمد طوسون

عندما لا تموء القطط

قصص

الهيئة العامة لقصور الثقافة / إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد



الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى
وشمال الصعيد الثقافى
ثقافة الفيوم



عندما لا تموء القطط

قصص

أحمد طوسون

رئيس الإقليم

عبد الرحمن نور الدين

مدير عام الفرع

منتـــصر ثـــابت

مدير التحرير

محمد حسنى إبراهيم

الأخراج الفنى والغلاف

محمود الهندى

المدقق اللغوي

محمد الطلاوى

المتابعة الإدارية

مـــنيرة بـــلال

حمدى سليمان

لجنة الإجازة

د. مجدى توفيق

محمود العشيرى

إهداء

إلى جمعة ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠

ساحة المسجد الأقصى

القدس

جنين ، طولكرم ، نابلس ، رام الله ، الخليل

غزة ، رفح ...

وكل المدن والقرى الفلسطينية

ليتني مثلكم أملك حجراً ...

أحمد

عندما لا تموء القطط

هوت انفجارات متتالية فتراكمت سحب كثيفة من الدخان وتصاعدت ألسنة لهب، تشتت المتظاهرون فى أروقة البيوت المتهدمة يحملون جثث الشهداء وبقيت قطة صغيرة فزعـة وحائرة ووحيدة بين أطلال الجحيم.

منذ أيام تهدم البيت الذى تسكنه و لم يعـد صـاحبها و لم تصادف قطة من بنى جنسها تؤنس وحدتها و لم تجد طعاماً يشبع جوعها ..

تلمست بمخالبها الأرض .. بعيداً عن الـدماء السـاخنة والجمرات التى تتساقط من البيوت وتشممت المكان بحثـاً عن شىء يصلح كطعام. سعلت من بقايا دخان ثم وقفت حائرة ..

أرهفت سمعها فسمعت خربشة واهية، تطلعت إلى صندوق قمامة مغلق ولهثت، قالت:

- ربما أجد طعاماً وسط المخلفات أو فأراً يبحث مثلى عن طعام

اقتربت حذرة .. رفعت غطاء الصندوق وتعلقت بحوافه، بحلقت بعينيها البرقيتين إلى القاع المظلم فرأت عينين تلتمعان فرحت. قالت:

- لابد أن كائناً حياً مازال هناك .. على الأقل لن أكون وحيدة

قفزت إلى القاع، أثارت جلبة تردد صداها، تلمست الكائن المنزوى هناك وتشممت رائحته بينما سمعت مواءاً متقطعاً وعميقاً. نسيت جوعها ووحدتها وحيرتها وسألته:

- لِمَ تبكى أيها العجوز ؟؟

فتح عينيه فلمعتا فى الظلام

- ظننت أنه لم يبق غيري في هذه المدينة

ربتت على ظهره، تلمست دمامل وجروحاً قديمة، وخزه ألم لكنه كان سعيداً بمؤانستها له. قالت:

- أنا جائعة

قال:

- ألاّ يوجد طعام فى الشوارع ؟!!

قالت:

- لا يوجد إلاّ جثث الشهداء ..

تذكر أنه لم يذق طعاماً منذ أيام نسى عددها .. فعوى

تذكرت بيتها الذى تهدم وصاحبها الذى خرج إلى مدرسته ولم يعد، قالت:

- أنا وحيدة ..

تذكر العجوز التى كانت تحنو عليه حين قتلـــها المحتلـــون، رائحة شواء صغاره داخل البيت، الشظايا الــتى أصــابته والجحيم الذى فرَّ منه ..

- أتخذينى أباً.

سمعا أصوات بعيدة تقترب، عرف أنها بشــائر انتفاضــة جديدة، مظاهرات وحجارة وأزيــز هليكــوبتر تحلــق فى السماء ومدرعات تزوم من بعيد.

قالت:

- أنا خائفة

ضمها إلى صدره وقال:

- يمكنك الاختباء فيه

دخان كثيف كاد يخنقهما، هرولة، صوت حجارة ودوى مدافع وصفير طلقات فى الهواء ...

ثورة واشتعال ثم سكون.

بعدها عاد الصمت المطبق وعادت الشوارع إلى وحشتها، فتح عينيه بعد أن أغمضهما فوجد نوراً يشق ظلام القاع وظلالاً لشمس بعيدة فى الأفق ..

اشتاق إلى الشوارع المضيئة والأنوار الساطعة وبستان أخضر وابتسامة عجوز أو فتاة وكف طفل يداعب ظهره بأنامله.

ربت عليها بين أحضانه وقال:

- يبدو أنه الصباح

لم ترد عليه

أحس بها كومة باردة فى أحشائه، بحث عن مصدر الضوء، لمح ثقباً صغيراً يسمح بمرور رصاصة وحيدة إلى داخل الصندوق وأحس سرسوباً من الدم يسرى تحته.

أصابته رعشة وأحس غصة فى حلقه ورغبة فى قيء جارف..

زام وعوى وخرج منه مواء طويل حاد ما زال يتردد فى المدينة.

الصندوق الأسود لرأس متفجر

بعد فحص اللازم لبقايا الرأس المتفجر والتأكد من هويته العربية ورصد آخر الذبذبات الصادرة عنه نتشرف برفع التسجيلات الخاصة به بعد إفراغها فى التقرير.

جـ ١

(صوت تثاؤب وأزيز يعتقد أنه لسرير أو أريكه نتيجة حركة فجائية ثم فترة صمت أعقبها صوت اندفاع مياه

- أنا جائع ..

سأبحث عن أي شيء

صوت ارتطام ربما نتيجة تصادم أدوات خشبية ومعدنية

- غير معقول

يجب أن أجد شيئاً

الحوانيت مغلقة والحصار يشتد ولا أمل فى انفراجة قريبة

....

ربما تدخلت القوات العربية وأنهت الحصار

ذبذبات شديدة من الواضح أنها نتيجة قهقهة عالية

والله لقد جننت !!!

صوت دقات عنيفة على الباب

- من ؟؟

لا تشغل رأسك وافتح سريعاً ، ربما كان أحدهم يحتاجك.

صوت أزيز باب يفتح

صوت طفل : أنت رجل البريد ؟؟

- بلى

تعال سريعاً حتى لا يراك أحد

صوت الطفل : أرجوك

أريد أن أبعث هذه الرسالة إلى أبي

- لكن العدو يفرض حصاره على هذه البلدة

(لقد دمرت هيئة البريد و لم يعد لى عمل)

صوت الطفل: أرجوك تصرف

لابد أن تصل رسالتى إلى أبي ليعود سريعاً

- هل تعرف عنوانه ؟

صوت الطفل: نعم خرج مع المظاهرة منذ أيام و لم يعد لقد وحشني جداً وأريد أن يعود سريعاً

....

فترة صمت

- لابأس

سآخذها منك وأرسلها إليه

ولكن عليك أن تعود سريعاً إلى بيتك فالشوارع خطره

(وكذلك البيوت يا المساكين!!)

صوت الطفل : وهل ستصله سريعاً ويعود لي؟؟

- لقد وعدتك أن أوصلها إليه وعليك أن تعود الأن قبل أن يعاودوا القصف.

صوت غلق الباب وفترة صمت طويلة ..

جـ ٢
يا مسكين، أين يكون والدك الأن ؟!!
هل استشهد فى المظاهرة أم أعتقلوه ؟!!
لا فرق

....

أبى العزيز
أنا خائف
منذ خرجت إلى المظاهرات وأنا كما وعدتك لم أخرج إلى الشارع إلاّ اليوم لأبعث الرسالة، سمعت دوى انفجارات هائلة وأنا وحدي
كثيراً ما أحسست بالرصاصات قريبة مني و لم أفعل سوى أن أبكى، أعرف أنك ستغضب مني وأن الرجال لا يبكون، لكنى لم أتمالك نفسي

وحين صمتت الانفجارات نظرت من خلف النافذة فلـــم أجد بيوت جيراننا و لم أجد إلاَّ أنقاضاً وأكواماً هائلة مـــن التراب .. حتى قطتي فرت مذعورة و لم تعد

لا أعرف كم من الأيام مرت ولا أعرف لماذا تتركنى وحيداً ؟؟

أرجوك لا تغب كثيراً وعد سريعاً

هيثم

جـــ٣

هذا الجزء تلف نتيجة التفجيرات الشديدة و لم نستطع إفراغ تسجيلاته لعدم صلاحيتها.

جـــ٣

آلاف الرسائل قمت بتوصيلها يا حامد ، ماذا أنت فاعل؟؟

لا شيء تبكى عليه

لا أب ولا أم ولا زوجة ولا أهل ..

ولا عمل !!

أنت نفسك لم تقم بعمل واحد مفيد !!

هل تظن مساعدتك للجرحى بطولة، مشاركتك فى مظاهرة!!

وماذا بعد؟؟

ما الذى يكبلك إلى هذا الحد ؟؟

هذه الجدران؟؟ وما أدراك أن تجدها غداً وما أدراك أن تجد نفسك وسط حطامها وتضيع دون مقابل ؟؟

فكر جيداً، اتخذ قراراً صائباً مرة فى حياتك ، حياتك التى لا قيمة لها !!

جـــد

لقد وعدتك يا هيثم

المناوشات اليوم قليلة والشوارع خالية ، حينما نصـــل إلى المعبر لا ترتبك. استعد وحين تقترب منهم أضـــغط علـــى الحزام وسينتهى كل شيء في لحظة، وتأكد يـــا هيـــثم أن رسالتك ستصل إلى العالم كله

(فترة صمت ثم خفقان شديد ثم صمت، جندى واحد يـــا حامد ..

صوت جندى يهودى: إلى أين ؟؟!

لا ترتبك ، قل أى سبب ، وانتظر ربما ظهر آخرون

- العلاج

أريد أن أشترى علاجاً لأمي

- هاها

ممنوع الخروج من البلدة

- ولكني لن أخرج من البلدة

سأذهب إلى النصف الآخر لأحضر العلاج

- النصف الأخر

- هأهأ .. لم يعد هناك نصف أخر

- ألا تعرفون شيئاً عن الأمر الواقع

- ولكن أمي مريضة

هناك أخر يظهر من بعيد تريث يا حامد، استمر

- فلتمت وتستريح

- فلتموتوا جميعاً

أرتفع صوته عالياً

- هذا ظلم .. ظلم

جنديان آخران يقتربان ، هكذا يكون الصيد ثميناً

صوت الجندى الأخر من بعيد : لماذا تصبر عليه ؟؟

- انصرف وإلاَّ أطلقت النار

- انتظر

انتظر أرجوك

دوي إنفجار هائل ....

درس العربي

(١)

نظرت البنت إليهما وقالت:

- أنا خائفة

ابتسم الملكان وقالا:

- مما تخافين ؟!!!

ارتجفت

تحسست موضع الطلقات والشظايا التي نفذت إلى جسدها.

دوت في أذنيها الصرخات

- غارة .. غارة

صرخات مذعورة تتكوم في الطرقات وفوق درجات السلم وفي حوش المدرسة، تطبق على الطباشير في كفها، تلمح بعينين مرعوبتين طائرات الأباتشي بوجهها القبيح تغطى السماء، تبحث عن كراستها وقلمها وحقيبتها وزمزمية الماء، تتوالى الطلقات من كل اتجاه.

تجرى مذعورة لتختبىء تحت منضدة، ترتجف. خرج صوتها متحشرجاً واهناً

- أسمع دوى المدافع

صفير الطلقات .. أزيز الطائرات ..

ربتا على جسدها الصغير الذى يشبه ملاكاً نائماً وقالا :

- هنا لا يخاف الشهداء

(٢)

حين رحل الملكان بقيت وحيدة

لم تع سبب كل هذا الصمت أو مصدر هذا الضوء . لكنها لم تشعر بخوف للمرة الأولى تحس طعم الأمان الذى يشبه التنــزه فى حديقة بصحبة أب وأم ، أو قيادة دراجة بألوان زاهية أو التأرجح فى أرجوحة تطوحك بعيداً إلى السماء أو لعب المساكة في الشوارع.

رغما عنها أنفرجت أساريرها بإبتسامة

راودتها رغبة في رؤية الأهل والأصحاب، نهضـــت وســط

هالة من نور، تفحصت الوجوه المسجاة

العم ظافر، الخالة إحسان، جدي أبو محمود، صاحبتي هداية

.... جارنا الطيب العم عمار، أخي جهاد !!

سيسعد أبي كثيراً برؤيتك وستعود لنلعب معـــاً، لم أكـــن

أصدقهم عندما قالوا أننا لن نراك ثانية

- انتظرني هنا

سأسرع وأخبرهم بنفسي

(٣)

لم تدرك متى عادت إلى مكانها، لابد أن النوم غلبها وحملها

أبوها كعادته إلى سريرها.

صحيح أنها لم تجد السرير ولم تجد حجرتهـــا أو أشـــيائها

الصغيرة لكن لابأس، فهي متأكدة أنها رأت أخاها جهـــاد

بالأمس وبالتأكيد ستجد بيتها وسريرها .. المهم أنها تأخرت عن مدرستها

لا تعرف كيف ستذهب بدون مريلة أو حقيبة كتبها أو زمزمية الماء و لم تكتب واجبها المدرسي لكنها ستذهب ..

وستُسمع على مدرسها الدرس جيداً

زرع الفلاح أرضه

حصد الفلاح زرعه

حمى الشهيد وطنه

حمى / فعل ماضي و (حاضر) مبني على الجهاد وضد الطمس

الشهيد / فاعل مرفوع فوق هامة الوطن

وطنه / وطن مفعول به لكنه لا يستسلم والهاء مضاف إليه لا ينفصل عنه

وحين رأت الملكين قادمين بوافد جديد نهضت مسرعة لتخرج، وحين سألها أحدهما:

- إلى أين تذهبين ؟؟!

قالت بحماس:

- تأخرت عن مدرستي ولن ألحق طابور الصباح !!

وقفا ساكنين و لم يستطع أحدهما منعها

تفحصت وجهيهما وانطلقت دون أن تعرف سبباً للدموع

التي رأتها بعيني الملاك الطيب

الشجرة

قالت الشجرة لصاحبها

- لو تشتري بندقية تحمينا

نظر إليها والتفت إلى ساعديه وكشف عن عضلات مفتولة

وخبط بكفية فوق صدره وقال:

- يحمينا الله

هزت الشجرة فروعها ونظرت إلى السماء وقالت:

- يا الله !!

الخطر قريب والعدو يتربص

رقص صاحبها وغنى بصوت عال

- أمجاد يا عرب أمجاد

- أمجاد يا عرب أمجاد

ظل يرقص ويغنى حتى تعب ورقد تحت ظل شجرته العتيقة

وأغمض عينيه ونام.

حلم ببنت جميلة بعيون سوداء وضفيرة طويلة وبيت صغير بحديقة وعرس يجمع الأهل والأصحاب وقبـــل أن يحلـــم بالوليد القادم أفاقته طعنة العدو ..

انسال دمه نهراً صب في جذع الشجرة الحزينة حتي دمـــت أغصانها وأزرقت أوراقها وبكت

بعدها احتلوا بيته الصغير وقتلوا فتاته الجميلـــة وحصـــدوا زرعته قبل أن تثمر وجاءت جرافاتهم لتقتلع شجرته. حين أسقطت الجرافات فروعها وأوراقها لم تصرخ. قالت:

- لابأس

غداً تنبت أفرع أشد وتورق من جديد

وعندما عادوا ووجدوها تنبت من جديد عادت جرافاتهم ثم حملوا الفؤوس والبلط والمناشير حتى أجتثوها مـــن فـــوق الأرض ورأوا دموعها تنسال وسمعوا نحيبـــاً يخـــرج مـــن الأعماق ..

- أمجاد يا عرب أمجاد

علت فرحتهم

دكت الجرافات البيوت والحوانيت والأشجار و لم يبق غير الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل والأنقــاض واســتغاثات الأعماق.

مرت أيام طويلة كئيبة لم تر الشجرة فيها نورا

كانت وحيدة تنتظر من يساعدها

وحبيسة تبحث عن ابتسامة وحين طال انتظارها و لم يأت أحد تذكرت صاحبها الذى قتلوه وقالت:

- يا الله !!

لم يكن يصدق

فكرت الشجرة و لم تيئس، قالت إذا كانوا اجتثوا الفــروع فستبقى الجذور ممتدة في الأعماق ومع الأيام ظلــت تمتــد وتمتد بعيداً عن عيونهم وجرافاتهم وفي مكان بعيد خرجت نبتة وسط أحراش كثيفة ..

كانت الشمس بعيدة تحجبها الأحراش، لكنها كانت سعيدة بالنور الذى بدا والظلمة التي خفت، ظلت تنمو وتكبر دون أن يلاحظها أحد حتى رصدتها - عيونهم التي تجوب في السماء - عفية يانعة كما كانت ..

هرعوا ناحيتها، صوبوا بنادقهم ومدافعهم ودباباتهم ورشقتها طائراتهم بحريقها.

وحين هدأ فزعهم حضر مختصون ومسحوا المكان وبحثوا طبيعة التربة وعلاقتها بمكان النشأة الأصلي وفحصوا درجات الحرارة والطقس وحللوا فروع الشجرة وأوراقها وامتداد جذورها وطبيعة مقاومتها وانتهوا إلى اجتثاث جذورها مهما امتدت ..

عملت الحفارات أسبوعاً بعد أسبوع وأنينها لا ينقطع

- أمجاد يا عرب أمجاد

صنعوا حفرة هائلة لا مثيل لها حتى خفت الأنين الصادر من الأعماق فظنوا أنهم نجحوا في القضاء عليها .. لم يكتفـوا وصبوا كتلاً خرسانية هائلة

كانت تتأوه ولا أحد يسمعها ، تستنجد ولا أحد يجيرها .. وبعد أن جفت دموعها قالت :

- لابأس ..

جذوري ممتدة ولن يستطيعوا اقتلاعها

وكلما زادت قيودهم قسوة زادت عزيمتها صلابة وظلـت جذورها تمتد في كل اتجاه حتى فوجئوا بهـا تنبـت مـن جديد..

هنا وهناك وفي كل بقعة من الأرض

لم تعد شجرة واحدة. صارت عشرات ومئات وآلافاً مـن الأشجار ورغم كل النيران التى صوبوها تجاههـا إلاّ أنهـا كانت تبتسم وكانوا يرتعبون لأنهم صاروا متأكدين أنها لن تموت.

سلك شائك

- إلى أين يا جدة ؟

التفتت الجدة إلى صباح فانقشعت سحابات غـــيم عـــن قلبها..

صباح بسمة البيت الوحيدة وأمل الغد

اقتربت وحملتها الجدة إلى حضنها وقبلتها فوق جبينها بحنو،

قالت صباح

- هل ستذهبين إلى السوق

لتشتري الطحين ؟

- لا يا روح الجدة

سأذهب إلى السلك ..

- سترين أبي ؟؟

نهضت الأم وقالت:

- أنزلي عن صدر جدتك يا صباح

لقد كبرت البنت وصارت الجدة عجوزاً

قالت صباح:

- سأذهب معك يا جدة

اقتربت الأم وأخذتما من الجدة وقالت:

- الطريق خطر ولن نترك المخيم

- لكني أريد أن أري أبي

- سيعود أبوك عندما يفتحون الحدود

عدلت الجدة من ثيابها وشدت طرحتها فوق رأسها، وقالت الأم:

- لقد تأخرت يا أم خاطر

طمأنينا علي أخوالنا برفح ولا تتأخرين

جرجرت الجدة قدميها بين ركام الأنقاض في الشـــوارع، بينما بكاء صباح يتباعد مع المخيم، الشبان في الشـــوارع يزيحون إطارات السيارات المحترقة عن الطريـــق ويجمعـــون فوارغ الصواريخ التي عوت بالليل؟!!!

إلى متى يستمر الحال على ما هو عليه ؟؟!!!

لم يعد للأسواق مكاناً والحوانيت أصبحت جدراناً متهدمة تثقبها الشظايا، الله يرحمك يا أبا خاطر، تركت عبئاً ثقيلاً.. أسبوع يا محمود تتركنا، ليتك لم تذهب، لم نكن نعرف أنهم سيغلقون الحدود، لو كان محمود هنا لتصرف، السكر نفد والطحين يكفي بالكاد يوماً آخر ولا نقود معنا والحصار مستمر والشوارع صارت مرتعاً للكلاب المسعورة، الشتاء على الأبواب يستعد لمهاجمتنا و لم نستعد له..

لو أنه عاد قبل الحصار لنفعتنا البضائع التي سيجلبها من رفح والعريش، كل يوم يتحدثون عن رفع الحصار وفتح الحدود ولا نعرف متى يصدقون؟؟

يا ترى هل سيأتي الشتاء علينا ؟!!

- يا أم .. يا أم

- كيف حالك يا محمود ؟!

- حاولت عدة مرات التسلل عبر السلك

لكني فشلت

- حذار يابني

- الكلاب مسعورة دون عقل

- وأخبار أم صباح ؟

- بخير وتسأل عن الأهل

- وصباح ؟

- كانت تريد أن تأتي معي لتراك لكننا خفنا عليها

- ولا توجد أخبار عن فتح الحدود ؟؟

- الأخبار عندك

- ها ......

كل يوم نسمع أخباراً

الصحف والراديو والتليفزيون

ما فائدة الأخبار ؟!!!

- وأخبار أخوالك ؟

- يدعون برفع البلاء

- وأخوك لا يتصل بهم ؟!!

- أخي اتصل من باريس ويسأل عن الأحوال !!

ابتسمت الجدة وإن سقطت دمعة فوق خـــدها. لملمــت شتات نفسها. من بعيد سمعت عواء الطائرات ثانية. ربتت على السلك الشائك الذي احتضن كف الابن وقالت:

- لا تنس الطحين والسكر

وغطاء الصباح

وعادت وحيدة تبحث عن البيت

عصفور المدينة

كان طفلاً صغيراً مسالماً

يحب المآذن والقباب وترتيل الآذان ودقات الكنائس وجدوه هناك يجلس وحيداً فى أرضه بعد أن ذبلت أشجار الزيتون وسقطت أوراقها ونمت أشواك كثيفة وأحـــراش. يمســك غصناً جافاً بين يديه . يرسم - فـــوق الأرض – فرحـــاً وشباباً يغنون على دقات كفوفهم ويرقصون.

يلف رأسه بشال فيدو كأنه شيخ قبيلة حكـــيم أو نـــبي طريد، اقتربت دبابتهم فلم يترك فرحه ويلتفـــت إلـــيهم. اقتلعوا جذع شجرة وضع فوقها رايته ودهســـوا فرحـــه بأحذيتهم. أمسك حجراً صغيراً وقذفهم به.

قالوا: تريد قتلنا ؟؟!!

صرخ غاضباً: إنها أرض أبي

طاردته دباباتهم ، لملم رايته ووضعها فوق كتفه ..

ضحكوا وتركوه يصحب رايته الكسيرة ويسير

في الطريق إلي بيته أوقفوه.

سألوه عن اسمه وعمره والمنطقة التي يسكن فيها ومن أيـــن أتى وإلى أين سيذهب !!!

ذكر اسمه وعمره وعنوان بيته

قال: كنت في أرضي وذاهب إلى بيتي

دفعوا رشاشتهم في وجهه وقالوا :

- انصرف

لم يتحرك من مكانه، اشار ناحية رايته التي أحتجزها الجنود عند البوبات

وقال: رايتي ؟!!

صاحت رشاشتهم في وجهه :

- انصرف

مر بين عرباقم وسار وحيداً حتى ابتعد عن رشاشتهم. خلع قميصه وكشف عن صدره فبانت رايته عالية تخفق.

***

عند بيته وجدهم هناك يحتشدون ، حين حاول الـــدخول منعوه

صاح غاضباً: بيتي !!!

سخروا منه ، قالوا إنها أرضهم وبيوتهم !!!

قال: إنه بيت إبي !!

ورثته عن أجدادى .....

قالوا : هل معك ما يفيد ملكيته ؟؟

قال: أوراقه بالداخل

قالوا: افترض أننا حرقناها

هل تستطيع إثبات ملكيته ؟!!

قال: انظروا هناك هذا مسجدي وتلك كنيستي

وهذه الشواهد لحود أبي وأمي وأخوتي كل هذه الأشـــياء سشتهد معي.

خافوا حجته، أمسكوا ذراعيه وتشاوروا فيما بينهم. بعـــدها قبضوا عليه ووضعوه زنزانتهم.

****

فى الزنزانة الجدران عالية والأصفاد أفاعي تلتـــف حولـــه وتكبل حركته والأبواب منيعة، خلفها يراقبـــه الســـجان بوجهه الكريه ..

لا يصله بالحياة إلاً شباك صغير عال من الحديد. أحس كم هو ضعيف ووحيد وهم أقوياء ..!!

تذكر الأهل الذين استشهدوا. الأصحاب الذين تفرقـــوا. البيت الذي سلبوه لأنفسهم ..

أخذ نفساً عميقاً بطعم القهر وأغمض عينيه وصرخ ..

أغمض عينيه وحلم بالأرض والراية والبيت وتمنى أن يصبح أسداً يلتهم هذه الوحوش ..

تثائب وحرك رقبته فخرجت زمجرة قوية أرعبت السجان. راقبوه على شاشتهم غير مصدقين !!

تعجب أن أصبح أسداً، زأر وهاج ، نهش بمخالبه الجدران التي نزفت دماً. أرتعبوا وهربوا وبنو آلاف الأسوار حـــول زنزانته...

وظل حبيساً ..

****

أصبح سعيداً حين رأى رعبهم منه رغم قوتهم وحبسه !!

تمنى في نفسه لو أصبح حصاناً جامحاً في البراح لا يلجمـــه شيء حتى سمع الصهيل، لكن أسوار السجن أعلى مـــن أن يتخطاها أمهر الجياد، أغمض عيني الأسد الحبـــيس وذرف دمعة، تذكر عصفوره الحزين بريشه الملون، فرحة الانعتاق حين انفتح باب قفصه، تحليقه بعيداً حتى لامـــس الســـماء وغناءه الشجي...

فتح عينيه على ضوء يتسرب من نافذة سجنه البعيدة، وخزة ألم، حلم أن يصبح عصفوراً طليقاً ..

أحس نفسه خفيفاً كطائر، حاول أن يزأر فخــرج غنــاء حزين، حرك ذراعيه فحلق بجناحية الداميين وطار عالياً في سماء زنزانته ، وقف عند حديد نافذتها وتطلع إلــيهم وإلى دباباتهم ورشاشاتهم ..

انتشى وغرد ...

عندما رأوه صوبوا بنادقهم نحوه لكنه كان يحلق بعيداً عــن رصاصهم ...

وبين حين وآخر يترل إلى الأرض وبمنقاره الصغير يلــتقط الحصى ويقذفهم به فيفروا مذعورين.

قذيفة هاون

مع انتهاء القصف تخمد حمم النار
تتناثر فى الإنحاء أشلاء الشهداء والجرحى مع خرد القذائف والصواريخ وفوارغ الطلقات والأطارات المحترقة ..
نبحث عن أجسام لم تنفجر بعد، نصب الماء فوق الجمرات، نحصي عدد الشهداء والجرحى ونلقي نظرة ألم إلى البيوت والحوانيت التي أصبحت أنقاضاً ونعود ..
تنشغل الأمهات في علاج الجرحى ، والرجال في التحضير لدفن الشهداء والفتيان في الأعداد للمظاهرة
نتسرب واحداً بعد واحد حتى نلتقي بين أنقاض أحد البيوت، نراجع ما حدث طيلة اليوم، نتناقش ونقترح، نحصي ما أعددناه من أحجار ونعد الرايات ونخطط لما سنفعله غداً.

*****

حين رأيناه بيننا نظرنا إلى كفه الصغير وتعجبنا
قال أحدنا !
- وماذا سيفعل معنا ؟؟!
ضحكنا جميعاً وبكى وحده ..

ساد الصمت لحظة وقلنا :
ما المانع أن يشاركنا اجتماعاتنا
جلس بيننا يستمع دون أن يتكلم وحين انتهينا ظل يقلـــد أصوات الأهل والجيران حتى نسينا تعبنا وضحكنا من قلوبنا وافترقنا

****

في الصباح تقابلنا وسرنا خلف الجنازات ..
وحين نلمح القناصة يتربصون فوق أسطح البيـــوت نبـــدأ التنفيذ، نتحصن خلف جدار أو ساتر رملي وعندما يبـــدأ قطعان المحتلين إطلاق نيرانهم نلقي أحجارنا ناحيتهم ونعود سريعاً خلف السواتر ..
ثم نعاود الكرة مرات ومرات
وفي كل مرة نراه معنا بيده الوحيدة وكفه الصغير المعاق !!

****

مع استمرار المظاهرات زادت خبرتنا
أحسنا اختيار أماكننا وإطلاق أحجارنا ...

لم نصدق أنفسنا حين سمعنا دويَّ الحجر وهو يشق الهواء، توقفنا جميعاً وسرنا معه وهو ينطلق ناحية قـــوات العـــدو ورأينا أحد القناصة يســـقط وســـط فرحـــة المتظـــاهرين وتكبيراتنا

بعدها اجتمعنا ..

أقر أفراد المجموعة أنه هو الذي اسقط القناص الإســـرائيلي وأن دويَّ أحجاره أعلى من عواء طلقات العـــدو تقاسمنـــا ضحكاتنا وتبادلنا تهنئته والشد على الكف الصغير ، قال:

- لم اقم بشيء استحق عليه التهنئة

حينها اجمعنا على اختياره زعيماً لمجموعتنا وانصرفنا...

****

في كوخ من الخشب والصفيح - عند مقابر الشـــهداء - كان اجتماعنا الأول بعد تعيينه زعيماً ..

قال أنه يسكن هناك إلى جوار أبيه وأمه ليقرأ لهم الفاتحـــة كل صباح، وبعد بداية الاجتماع طالب بتطـــوير عمـــل المجموعة من الدفاع إلى الهجوم ..

- سنهاجمهم عند البوابات والمعابر والحواجز الأمنية

فارت ثورة حماسنا

كان يتحدث كزعيم حقيقي و لم نكن نصدق أنـــه نفـــس الولد الذي اعتدنا الاستماع إليه حين يقلـــد الأصـــوات ليضحكنا فاجئنا واخرج دمية جميلـــة عرفنـــا أن والـــده أحضرها له في اليوم الذي أستشهد فيه ، قال:

- ستكون جائزة لأول من يصيب قوات عدونا

وتعاهدنا جميعاً على الفوز بها، وبعد أن انتهى من شـــرح الخطة حملنا المصحف الشريف فوق اكفنا الصغيرة وقرأنـــا الفاتحة

****

حين حل الظلام تسللنا ناحية أحد المواقع وبدأنا هجـــوم الحجارة، حينها انطلقت الرصاصات من كل اتجاه، توقفنا على صرخة احدنا ودق الفزع قلوبنا الغضـــة ، لم نكـــن ندرى من أي اتجاه يأتينا شبح الموت وأي أصحابنا أصابته رصاصته ..

لكننا حين سمعنا دويَّ أحجاره خرجنا من جحورنا وعادت إلينا صلابتنا وتوالت رمياتنا ..

ومع استمرار قذفنا للموقع كانت المفاجأة حين فر المحتلون تاركين الموقع تحت قصف الحجارة

****

في الصباح كنا نودع جثمان محمود وفي القلب شظايا حزن ودانات ألم

من بعيد رأينا الدبابات والمدافع تحاصر البلدة والطـائرات حلقت بالقرب من رؤوسنا وألقت قذائف الجحيم علينـا وفقدنا واحداً آخر من مجموعتنا، لذنا إلى المخابىء والرماد يغطي جباهنا وصورة الأهل وهم يتساقطون في بحار الدم لا تفارق عيوننا

كانت الغصة تملأ حلوقنا .. انتهينا حين سمعنا بلابل حزينة تشدو واستغاثات لطائر مذعور ..

نظرنا إليه ليقول شيئاً ، لكنه خبأ كفه الصـغير - الـذى أعاقته الشظايا - وذرف دمعة و لم يتكلم

****

مرت أيام طويلة و لم نجتمع

حتى بعد أن خف الحصار لم نحاول أن نجتمع ثانية ..

فوجئنا به يمر علينا واحداً واحداً ..

وفي كوخه الصغير اجتمعنا ، قال:

- لابد أن ننتقم

قلنا :

- إنهم لا يتورعون عن قتلنا

قال:

- لا يجب أن نستسلم مهما حدث

قلنا:

- وماذا سنفعل ؟!!

قال:

- لابد أن تكون عودتنا قوية

اقترح أحدنا أن نهاجم المستوطنات التي تتراكم كـأكوام القمامة فوق صدورنا، لاقت الفكرة ترحيباً من الجميع، قلنا:

- ستكون ضربة موجعة

تناقشنا وأفرزنا أفكارنا لاختيار أحسنها، لاحت صـورة أصحابنا الذين فقدناهم أمامنا فزادتنا إصراراً، قال أحدنا:

- معركة كهذه تحتاج أسلحة كثيرة

- وحقيقة

ساد صمت مطبق قطعه قائلاً:

- أو شيء يبث الرعب في قلوبهم

صرخ أحدنا قائلاً:

- كمدافع الهاون

التفتنا جميعاً ناحية الزعيم وصمتنا، ابتسم بثقة وقال:

- سأتدبر أمرها !!

ضحكنا من قلوبنا وبدأنا التنفيذ

****

في الموعد المحدد كنا هناك

أشعلنا كرات النار وأطلقناها بالنبال تجاه المستوطنة، بينما كان الزعيم خلف مخبئه ممسكاً بميكرفون صغير ويطلق القذائف من فمه فيثير الرعب ..

رأينا المستوطنين يفرون إلى المخابىء مذعورين، تعالت تكبيراتنا ..

حينها غطت السماء جحافل الــ F.16 وألقــت بكتــل الجحيم ناحية المدفع الذي سبب كل هذا الرعــب حــتى سكت عن إطلاق قذائفه ...

لم نتمالك أنفسنا وبكينا ..

لكن ما نعجب له أننا إلى اليوم نسمع قذائف الهاون تدْويّ ناحية المستوطنات هناك في نفس المكــان حيــث يرقــد ميكرفون صغير وحيداً إلى جوار دمية محترقة.

الحافلة

مهداة إلى خليل أبو علبة

(١)

تقرير عن المدعو خليل :

بمراجعة التقارير المرفوعة إلينا من الجهات المختصة وبمراجعة صحيفة الحالة الجنائية يتبين لنا الآتي:

أولاً: لم يثبت اشتراكه في مظاهرة.

ثانياً: لم يثبت صلته بأي من الخلايا الإرهابيـــة في منـــاطق الحكم الذاتي.

ثالثاً: لم يسبق له الاشتراك في عملية انتحارية ولم يسبق أن فجر نفسه.

رابعاً: لم تحم حوله أي شبهات عن علاقته بالحجارة بمراحل عمره المختلفة.

لذلك :

لا مانع لدينا من تعيينه تحت الاختبار بدرجة سائق حافلة

توقيعات أعضاء اللجنة

(٢)

صبيحة يوم عادى :

- خليل .. خليل

يصب خليل الماء فوق الخبز ويضع الكوز جانباً

- أنا قادم يا جدة

سأعد الطعام وأحضره

من بعيد صوتها مصحوباً بسعال وحشرجة

- أخوك عاد يا خليل ؟؟

يبحث خليل وسط المعلبات الفارغة ، بين الصحون ، فوق الأرفف ..

لم يتبق جبن أو بيض أو زيتون ..

لم يتبق شيء ...

يلصق عند حافة جدار ويجلس على الأرض محتضناً قدميـــه ودافناً رأسه بينهما

- لماذا لا ترد عليَّ يا خليل ؟

- هل تظنني مجنونة يا ولدي ؟

- أخي مات يا جدة

- وأبوك ألم يعد بعد ؟!

- ....

- وأبوك ...

- أف ..

- أبي مات يا جدة !!

- وأمك ستظل هكذا تثرثر مع الجيران وتترك بيتها ؟!

يمسك رأسه مغتاظاً

- أمي ماتت يا جدة !!

- ألن تذهب وتبحث عنهم ؟؟!

- سأذهب يا جدة

نهض خليل وحمل طبق الخبز إلى جدته وقبلها في جبهتها وانصرف

- خليل .. خليل

- لا تتأخر مثلهم

- حاضر يا جدة

(٣)

ظهيرة يوم عمل:

يتوقف عند المحطة ، يتأمل الركاب

عادة ركاب الصباح يكونون من المجندين العائدين إلى وحداهم بزيهم الكاكي ..

دائماً الصبحات كئيبة يا خليل، لم تكن تعلم أنك ستحملهم بحافلتك إلى الوحدات .. لو علم أبوك ما رضي عنك وماذا كنت ستفعل ؟؟ ومن أين ستنفق ..وأين ستعمل ؟؟

كثيرون يتمنون أي فرصة عمل ..

ركاب الظهيرة ربما كانوا أفضل حالاً ، أغلبهم من المدنيين، فتيات وشباب وعمال، هذه الوجوه الغريبة ماذا أتي بها إلى هنا !! ، أمريكان وروس وأوربيون وأفارقة؟

- شالوم خليل

- شالوم

(يا ابن الكلب)

أصبحت بلدكم وأصبحنا أغراباً

لماذا جئتم لاحتلال أرضنا وقتل أهلنا، كفاك خرافات يـا

خليل ، مالك أنت بالسياسة ، انتبه لعملك وعش في حالك

- لا سلام ولا غيره

- العرب عبارة عن حيوانات

تخرق أذنه الكلمة، يغلي الدم في عروقه ويبرد

يا أولاد القردة والخنازير

ضغط بكل قوته على دواسة الفرامل فارتج راكبوا الحافلـة

وسط همهماتهم ولعنتهم التي لم يعطها اهتمامه وكأنـه لم

يسمعها

- آخر محطة

(٤)

مساء وفاة الجدة:

ماذا يجسم على قلبك يا خليل ؟؟؟!!!

كل شيء
لم تعد الأمور كما كانت، لم يكن بكل هذه الوحدة الـــتي يعيشها، إنه مرعوب وخائف رغم عمله معهم، هل يـــوفر ذلك حماية كافية له، هل يختلف في نظرهم عن أي شـــاب يشارك في المظاهرات التي تندلع كل يوم، هل يشعر الشبان بمثل هذا الخوف ؟؟
لا أظن يا خليل..
يتفحص ركام الحطام والدماء في الشوارع ، لابـــد أنهـــا كانت مظارهة كبيرة، مصـــادمات ومواجهـــات والـــرد كعادته قاسياً وعنيفاً
بين لحظة وأخرى يرفع رأسه إلى السماء
السماء التي تحمل الجحيم
بقايا حيطان ثقبتها الشظايا وبقايا ذاكرة فى القلب لا تحمل إلاّ الألم، أنفه المزكوم برائحة الخوف يتلمس روائح الأمان بين النار والشظايا والأنقاض دون فائدة
ظل يراقب خطاه المترنحة وظله المنكسر على الإسفلت

- الله معاك يا خليل

- ماذا حدث

- ألم تعرف بعد ؟!!!

- ....

- جدتك الله يرحمها

هرع خليل إلى البيت ، بحث ونقب وسط الأنقاض والظلام، صرخ صرخة مدوية في الفراغ

- جدتي

- خليل عاد .. خليل عاد

انتظر وانتظر ، لم يرد عليه أحد

جلس في الباحة بين الأنقاض، يحاصره الظلام والصمت، نظر إلى السماء و لم يسقط عينيه عنها

(٥)

صبيحة يوم التنفيذ:

نفس الصباحات الكئيبة

بماذا تفكر يا خليل ؟!!

خليل كل يوم يركب الحافلة، في الصباح يحملهم إلى الوحدات وفي المساء يعود بهم

من محطة إلى محطة إلى محطة

لم يتأخر لحظة

لم يخرج مرة عن السيناريو المكتوب، لا خطأ واحد

والنتيجة لا شيء، لا شيء يا خليل

فكر يا خليل، لم يعد هناك وقت

أنهم ينتظرونك هناك

وكذلك الجدة ستسألك عن الأهل وتطلب منك ألاّ تتأخر مثلهم

ينتظرونك ولن تخذلهم ، لن تخرج عن السيناريو كثيراً،

أضغط بنزين، فقط اضغط بنزين

خليل يدهس الجنود اليهود

خليل يحمل الجنود اليهود

اضغط يا خليل ..

يضغط خليل على دواسة البنـــزين، انطلاقة عنيفة للسيارة،

صرخات واستغاثات وخليل يضغط

- مجنون .. مجنون

هأ .. هأ

أنت مجنون يا خليل .. مجنون

لكنك الآن تشعر بالأمان .

عندما ينطق الحجر

سأل الحراس والجنود عن نتيجة المعركة

قالوا: انتصرنا

قال: لم يبق أحد لم يعترف بنا

قالوا: بقي الحجر

هاج وثار ، راجع ترسانته الحربية من طائرات ودبابـــات ومدافع وقنابل نووية وكيمائية وبيولوجية وقال:

- إئتونـــي به حياً أو ميتاً

ألقوا شباكهم حوله وحملته جرارالهم إلى سجنه الكبير ومن السجن قادوه إليه، توقع أن يترجاه ليعفوا عنه لكنه ظـــل صامتاً، ركله بقدمه ركلة عنيفة وقال:

- ألاَّ تعترف بنا وبدولتنا ؟؟؟

وانتظر إجابة ولكنه لم يرد ، ولم يلمح بوجهه إنفعال

قالوا:

- لو اعترف بنا لنطق وأفصح

قال:

- ألقوه في البحر بضع سنين حتى يلين

ألقوه في أعماق الأعماق وحاصروه بأسلاكهم وزنزاناتهم

وحين حان الموعد أخرجوه ، تفحص ملامحه التي لم تتبدل

ونظرة التحدي التي لم ترتد وقال:

- ألا تعترف بنا وبدولتنا ؟؟!

وانتظر طويلاً دون إجابة

قالوا:

- لا يعترف بهيكلنا ودولتنا

قال:

- ألقوه في نار موقدة بضع سنين حتى بلين أشعلوا براكين وبراكين وارتفعت ألسنة اللهيب سـنيناً وحـين همـات وجدوه صخرة متقدة ، خاف أن ينظر إلى عينيه المتوقدتين،

قال:

- ألاّ تعترف بنا وبدولتنا ؟؟؟

وحين لم يجبه قال:

- ائتوني بشيوخهم ونسائهم وأطفالهم مكبلين

أقتلهم أمامه

حينها خرجت من الحجر زمجرة قوية هزت أرجاء المكـان

وسمعوا صوته عالياً:

- هذا يهودي .. اقتله

وهذه أرضي

حينها لم يتمالكوا ذعرهم، ضغطوا على مفاتيح أســـلحتهم وأطلقوا عليه رصاصاتهم؛ أنشطر الحجر عشرات الأحجار الصغيرة وكلما أطلقوا عليه الرصاصات أنشطرت إلى مئات وآلاف الأحجار التي نطقت بأعلى صوتها وقالت:

- هذا يهودي .. اقتله

وهذه أرضي

- هذا يهودي .. اقتله

وهذه أرضي

الشهيد

كان رجلاً يغرس شجرة

وامرأة تعجن الطحين

وشاباً يصنع مدفأة للشتاء

وفتاة تنسج ثوباً

وطفلاً يلعب مع أصحابه

وشيخاً يتعبد

وعجوزاً تحكي الحواديت لأحفادها

تاجراً وفلاحاً وطبيباً وجندياً ومهندساً وتلميذاً وعــازف عود..

بيتاً ومدرسة ومشفى ومئذنة جامع وأجراس كنيسة..

شجرة وزرعاً أخضر وأغصان زيتون..

وطائراً يحرس عشه ويغرد..

وحينما دخلوا أرضه أمسك فأسه التي يزرع بهــا وقاتــل بنادقهم، كلما أطلقوا رصاصة زرع نبتة..

وعندما أصابته رصاصاتهم ونزف دمه، خرجــت امــرأة بعجينها تزرع وتحصد وتلد أجيالاً جديدة لها نفس ملامحه أفرغوا رصاصاتهم في القلب فخرج شيخاً يقــرأ القــرآن ويُسمعَ الأطفال تاريخهم ويجمعهم في المساء حول حكاياته المدهشة.

وحين عادوا وقتلوه تحول طفلاً وشاباً وفتاة ..

تحول إلى شجرة كبيرة من الشوك بحجم أرضه منعتهم من دخولها وحين اقتلعوها تحول إلى طمي خصيب غطى أرضه لتثمر..

حينها جاءت جرافاتهم وجــراراتهم لتحملــه بعيــداً إلى صحرائهم الجدباء

ساعتها تحول إلى حجر يُسقِطُ طائراتهم ويهشم حواجزهم التي يختبئون خلفها ..

... ويغني

المحتوى

رقم الإيداع ٩٠١٤ / ٢٠٠٣

التنفيذ والطبع: هارموني للطبـــاعة
☎: ٣٥٩٣٩٥٧



اصدارات اقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافي لعام ٢٠٠٣

رواية:

- «بائع البوح» — علي شوك

قصص:

- «شجرة جافة للصلب» — هاني عبد المريد
- «لوحات زجاجية لعدة رجال» — عادل يحيى العجيمي
- «أبحث عن ذاتي» — فيفي سعيد
- «سيمفونية الفارس المنكسر» — علاء الدسوقي
- «عندما لا تموء القطط» — احمد طوسون
- «سفر الحب» — نجدي ابراهيم
- «الحلم المنافق» — السيد سعيد علام
- «رحيق العودة» — محمود الحنفي
- «سر النيل» — محمد شاكر الملط

شعر:

- «دوار البحر» — السيد فؤاد
- «على باب كان بيننا» — ابراهيم سليم
- «طلق الولادة» — محسن يوسف
- «حاجة تموت من الحزن» — مجدي ابراهيم علي
- «مطلوب في السما دلوقت» — محمود أبو العلا
- «عادة كل يوم» — سيد لطفي السيد
- «مسكوا حمام الروح» — سلامة عيسى
- «للعشق رائحة الوطن» — رفعت عبد الوهاب المرصفي
- «دموع الحبر الشيني» — بهجت الدقميري
- «وهكذا أقول للبلاد» — عطية معبد
- «الفلاح الفصيح» — محروس عبد اللطيف

مسرح:

- «نوبة صحيان» — محمد صابر مرسي
- «النهر يغير مجراه» — احمد الأبلج
- «عروسة لابن السلطان» — كمال علام

دراسة:

- «وجوه ومرايا» — د. عبد الحكم العلامي
- «الحكاية الشعبية في مسرح الطفل» — محمد زعيمة

الثمن خمسون قرش